٥

اختيار الفعل

مقابلة مع مايكل ألبرت فى ٢٢ سبتمبر ٢٠٠١

سؤال: فلنفترض، فقط من أجل النقاش، أن ابن لادن يقف وراء ما وقع من أحداث. إذا كان الأمر كذلك، ما السبب الذى يمكن أن يكون لديه؟ إذ من المؤكد أن ما حدث لا يمكن أن يعين الفقراء أو العاجزين فى أى مكان، وعلى الأخص الفلسطينيين، إذن ما هدفه؟ إذا كان قد خطط لهذا العمل؟

تشومسكى: عند تناول هذا الموضوع، على المرء أن يكون حذرًا، فحسب ما يرى روبرت فيسك، الذى كثيرًا ما أجرى لقاءات مع أسامة بن لادن، بل وكانت لقاءات مطولة، ابن لادن يشعر بالغضب من الوجود العسكرى للولايات المتحدة فى السعودية، كما يشعر الناس فى أنحاء المنطقة. وكذلك يشعر بالغضب بسبب الفظائع التى ترتكب ضد الفلسطينيين، بالإضافة إلى الدمار الذى قادته الولايات المتحدة للمجتمع المدنى العراقى. وهذا الشعور بالغضب يشترك فيه الأغنياء والفقراء من كل ألوان الطيف السياسى وغيره. كما أن الكثيرين من الذين يعرفون أحوال المنطقة معرفة جيدة، ليسوا على يقين من أن ابن لادن لديه القدرة على التخطيط لهذه العملية بالغة التعقيد من كهف فى مكان ما فى أفغانستان. غير أن تورط شبكته شىء يلقى قبولاً كبيرًا، كما أن الكثير يعتقدون بأنه هو الذى كان مصدر الإلهام بالنسبة للذين فعلوا ذلك. ومن الجائز تمامًا أن ابن لادن كان يقول الحقيقة حين ذكر أنه لم يكن يعرف شيئًا عن العملية. وإذا ما نحينا هذا كله جانبًا، فإن ابن لادن واضح فى شأن ما يريده، ليس فقط بالنسبة لأى غربيين يريدون إجراء مقابلات معه، مثل فيسك، وإنما الأهم من ذلك، بالنسبة لجمهوره من الناطقين باللغة العربية الذين يصل صوته إليهم من خلال أشرطة الكاست التى توزع على

نطاق واسع. وإذا تبينا الإطار الذى يعمل فيه، فقط من أجل متابعة النقاش، فإن الهدف الأول هو السعودية وغيرها من أنظمة المنطقة الفاسدة القمعية، ولا يوجد نظام واحد منها "إسلاميّا" حقًا. وأنه هو وشبكته عازمون على دعم المسلمين الذين يدافعون عن أنفسهم فى مواجهة "الكفار" حيثما كان ذلك فى الشيشان، أو البوسنة، أو كشمير، أو غرب الصين، أو جنوب غرب آسيا، أو شمال أفريقيا وربما فى غير ذلك من الأماكن. فهم قد قاتلوا وكسبوا حربًا مقدسة لطرد الروس من أفغانستان المسلمة، وهم أشد عزمًا على طرد الأمريكيين من السعودية، وهى بلد أكثر أهمية بالنسبة لهم، بحسبانها المكان الذى توجد فيه أقدس المواقع الإسلامية. إن دعوته لقلب أنظمة العصابات الفاسدة القاسية التى تستخدم التعذيب تجلجل على نطاق واسع، كذلك حنقه على الأعمال الفظيعة التى يعزوها هو وغيره إلى الولايات المتحدة، وليس عن غير حق تمامًا. وصحيح كل الصحة أن ما ارتكب من جرائم تعد بالغة الضرر بأفقر من فى المنطقة وأكثرهم تعرضًا للقمع. إذ أن الهجوم على برجى نيويورك والپنتاجون، مثلاً، كان بالغ الضرر بالفلسطينيين، ولكن ما يبدو أمرًا غير متسق بشكل حاد عند النظر إليه من الخارج، ربما يفهم بشكل مختلف إلى حد ما من الداخل. فمهما كانت أفعال ابن لادن ضارة بالأغلبية الفقيرة فى المنطقة، فقد يبدو بطلاً عن طريق مكافحة الظلمة، وهم حقيقيون. وإذا نجحت الولايات المتحدة فى قتله، قد يصبح أشد قوة كشهيد، وسوف يظل صوته يسمع على أشرطة الكاست، ومن خلال غيرها من الوسائل. فهو فى نهاية الأمر، رمز بقدر ما هو قوة موضوعية، بالنسبة للولايات المتحدة، وربما بالنسبة للكثير من الناس. وأظن أنه توجد كل الأسباب التى تحملنا على أن نعلم أنه يعنى كل كلمة يقولها. ولا يمكن أن تأتى جرائمه كشىء مفاجئ بالنسبة لوكالة المخابرات المركزية. ذلك أن "ارتداد الكيد إلى نحره" من جانب القوات الإسلامية المتطرفة التى نظمتها وسلحتها ودربتها الولايات المتحدة ومصر وفرنسا وپاكستان وغيرها، بدأ على الفور تقريبًا، باغتيال رئيس مصر السابق السادات عام ١٩٨١، وقد كان من أشد المتحمسين لخلق قوات تجمع لشن الجهاد ضد الروس. وظل العنف منذ ذلك الوقت بلا هوادة. إذ كانت الضربة المرتدة ضربة مباشرة، كما كانت من نوع مألوف جدّا على مدى خمسين عامًا من التاريخ، بما فى ذلك تدفق المخدرات والعنف. ولنأخذ حالة واحدة، إذ يذكر أكبر متخصص فى هذا الموضوع، چون

كولى، أن ضباط وكالة المخابرات المركزية "ساعدوا عن وعى" على دخول رجل الدين الإسلامى المتطرف المصرى الشيخ عمر عبد الرحمن إلى الولايات المتحدة عام ١٩٩٠ (الحرب غير المقدسة) وكانت مصر تطالب به لاتهامه بالإرهاب. وفى ١٩٩٣، زج به فى الهجوم على مركز التجارة الدولى، ذلك الهجوم الذى اتبعت فيه الإجراءات أو الطرق التى تم تدريسها فى كتيبات وكالة المخابرات المركزية التى يفترض أنها قدمت "للأفغان" الذين كانوا يقاتلون الروس. وكانت الخطة هى تفجير مبنى الأمم المتحدة، ونفقى لينكولن وهولاند، وغير ذلك من الأهداف أيضًا. وأدين الشيخ عمر بالتآمر وحكم عليه بمدة سجن طويلة.

سؤال: مرة أخرى إذا كان ابن لادن هو الذى خطط لهذه الأفعال، وخاصة إذا صدقنا مخاوف الشعب من أن هناك المزيد من هذه الأعمال التى سوف تقع، فما الطريقة الملائمة للإقلال من هذا الخطر أو إزالته؟ ما الخطوات التى ينبغى أن تتبعها الولايات المتحدة أو غيرها، داخليًا أو دوليًا؟ وماذا يمكن أن تكون نتائج تلك الخطوات؟

تشومسكى: . تختلف كل حالة عن غيرها من الحالات، ولكن فلنأخذ بضعة نماذج مشابهة. فماذا كانت الطريقة الصحيحة التى يجب أن تتبعها بريطانيا؛ كى تتعامل مع تفجيرات القنابل التى كان يقوم بها الجيش الجمهورى الأيرلندى فى لندن؟ أحد الاختيارات يمكن أن يكون إرسال القوات الجوية الملكية لقصف مصدر تمويلهم، أى أماكن مثل مدينة بوستون [فى الولايات المتحدة الأمريكية] أو تسلل قوات خاصة (كوماندو) للقبض على الذين يشتبه فى تورطهم فى مثل هذا التمويل وقتلهم، أو حملهم سرًا إلى لندن كى يواجهوا المحاكمة، حتى إذا ما نحينا جانبًا إمكان عمل ذلك، فسوف يكون مثل هذا العمل حمقًا إجراميًا. كانت هناك إمكانية أخرى وهى النظر بشكل واقعى فى الهموم والمظالم التى تكمن فى خلفية ما يحدث ومحاولة علاجها، وفى الوقت نفسه اتباع القاعدة القانونية فى معاقبة المجرمين. وفى اعتقادى، سوف يكون ذلك تصرفًا متعقلاً. أو فلنأخذ إلقاء القنابل على المبنى الفيدرالى فى مدينة أوكلاهوما. كانت هناك دعوات فورية مباشرة لقصف الشرق الأوسط، وكان من المحتمل أن يحدث ذلك، لو وجدت مجرد إشارة بعيدة إلى وجود أى صلة. وحين اكتشف أنه هجوم مدبر فى الداخل، عن طريق شخص لديه صلات بميليشيا عسكرية، لم تصدر دعوات لمحو مونتانا وأيداهو أو "جمهورية

تكساس" التى كانت تنادى بالانفصال عن الحكومة الظالمة غير الشرعية الموجودة فى واشنطون. بل كان هناك بحث عن مرتكب هذا العمل، الذى عثر عليه وقدم للمحاكمة وأدين. لقد كان رد الفعل معقولاً إلى حد بذل جهود لفهم المظالم التى تكمن وراء مثل هذه الجرائم ومعالجة المشكلات. هذا هو النهج الذى نتبعه، على الأقل، إذا كنا نهتم بتحقيق العدالة الصحيحة ونأمل فى الإقلال من احتمال وقوع المزيد من الأعمال الفظيعة ولا نزيد منها. هذه المبادئ نفسها تصلح بصفة عامة، مع إيلاء الانتباه المناسب لتنوع الظروف. وهى تصلح، بصفة خاصة، فى هذه الحالة.

سؤال: ما الخطوات التى تسعى حكومة الولايات المتحدة إلى اتخاذها والتى هى على النقيض من ذلك؟ وماذا يمكن أن تكون النتائج إذا ما نجحوا فى خططهم؟

تشومسكى: . إن ما تمت إذاعته هو تقريبًا إعلان للحرب ضد جميع من لا ينضمون إلى واشنطون فى لجوئها للعنف، بالكيفية التى تراها. فدول العالم تواجه "اختياراً صارخ الوضوح" انضموا إلينا فى حربنا الصليبية أو "واجهوا احتمال الموت المحقق والدمار" [آر. دبليو أبل، نيويورك تايمز، ١٤ سبتمبر]. ويكرر بقوة أسلوب خطاب بوش فى ٢٠ سبتمبر هذا الموقف. وإذا ما أخذناه بمعناه الحرفى، فهو يكاد يكون إعلانًا للحرب ضد الكثير من بلاد العالم. غير أنى على ثقة من أننا لا يجب أن نأخذه بالمعنى الحرفى. ذلك أن مخططى الحكومة لا يريدون إلحاق الضرر البليغ بمصالحهم. لكننا لا نعرف ما خططهم الحقيقية؟. غير أنى أظن أنهم سوف يحفظون عن ظهر قلب التحذيرات التى يتلقونها من الزعماء الأجانب، المتخصصين فى المنطقة، وكذلك وكالات استخباراتهم. فذلك الهجوم العسكرى الضخم الذى يمكن أن يقتل الكثيرين من المدنيين الأبرياء هو بالضبط "ما يريده بالتأكيد مرتكبو مذبحة مانهاتن قبل كل شىء"؛ ذلك أن الانتقام العسكرى يعلى من شأن قضيتهم، ويعطى طابعًا عقائديّا أيديولوجيّا لزعيمهم، وينزع أى قيمة للاعتدال، ويسيغ التعصب. فإذا كان التاريخ فى حاجة إلى عامل مساعد لتحقيق صراع جديد مخيف بين العرب والغرب، فيمكن لهذا أن يكون ذلك العامل المساعد [سيمون چينكينز، تايمز، لندن. ١٤ سبتمبر، وهو واحد من الذين ظلوا يؤكدون على هذه النقاط منذ البداية] وحتى إذا ما قتل ابن لادن، فلن يؤدى قتل الأبرياء المدنيين إلا إلى زيادة مشاعر الغضب حدة وكذلك مشاعر اليأس والإحباط التى تفور بها منطقة الشرق الأوسط، وكذلك تعبئة آخرين من أجل هدفه البشع.

وربما تحقق ذلك بصورة أشد إذا ما قتل فعلاً. سوف يعتمد ما تفعله الإدارة، جزئيّا، على الأقل، على الحالة المزاجية فى الداخل، تلك الحالة التى يمكننا أن نأمل فى التأثير عليها. ولا نستطيع أن نقول بقدر كبير من الثقة: ماذا ستكون عواقب أفعالهم؟ فنحن لا نعرف أكثر مما يعرفه المسئولون فى الإدارة. ولكن هناك تقديرات معقولة، وما لم يتبع طريق العقل وما يلزم به القانون والمعاهدات، فإن المستقبل يمكن أن يكون حالكًا.

سؤال: يقول الكثير من الناس إن مواطنى الدول العربية كان يجب أن يتحملوا المسئولية فى إزالة الإرهابيين عن كوكب الأرض، أو الحكومات التى تساند الإرهاب. فما ردك على ذلك؟

تشومسكى: من المعقول أن ندعو المواطنين إلى أن يمحوا الإرهابيين بدلاً من انتخابهم لتولى المناصب العليا، وكيل المديح لهم ومكافأتهم. غير أنى لم أكن لأقترح أننا كان علينا "إزالة مسئولينا المنتخبين ومستشاريهم والمنافقين من المفكرين الذين يصفقون لهم، وعملائهم من على هذا الكوكب"! أو أقترح تحطيم حكومتنا وغيرها من الحكومات الغربية؛ بسبب ما ترتكبه من جرائم إرهابية ودعمهم للإرهابيين فى طول العالم وعرضه، بما فيهم أولئك الذين انتقلوا من أصدقاء ذوى حظوة وحلفاء إلى فئة "الإرهابيين"؛ لأنهم عصوا أوامر الولايات المتحدة، مثل صدام حسين، والكثيرين غيره. ومهما يكن من أمر، فليس من الإنصاف إلقاء اللوم على المواطنين الذين يرزحون تحت نظم حكم قاسية عنيفة نحن ندعمها، وتحميلهم هذه المسئولية، فى الوقت الذى لا نفعل نحن ذلك فى ظروف أكثر ملاءمة بكثير.

سؤال: يقول الكثيرون إنه عبر التاريخ، حين يقع الهجوم على أمة من الأمم، فإنها ترد بنفس ما هوجمت به، فماذا تقول؟

تشومسكى: حين تهاجم البلاد، تحاول أن تدافع عن نفسها، إن استطاعت. وطبقًا لهذا المبدأ الذى توحى به، فإن نيكاراجوا، وتيمور الجنوبية، وكوبا، والعديد غيرها كان يجب أن تقصف واشنطون وغيرها من مدن الولايات المتحدة بالقنابل، كما يجب الثناء على الفلسطينيين لإطلاق القنابل فى تل أبيب، وهكذا. فبسبب مثل هذه المذاهب التى أوصلت أوروبا إلى ما هو أقرب من تدمير الذات بعد مئات السنين من الهمجية، وضعت أمم العالم ميثاقًا مختلفًا بعد الحرب العالمية

الثانية، يقر، على الأقل رسميًا، المبدأ القائل بأن اللجوء للقوة محظور إلا فى حالة الدفاع عن النفس ضد الهجوم المسلح، حتى يتحرك مجلس الأمن لحماية السلام والأمن الدوليين. والانتقام محظور بصفة خاصة. ولما كانت الولايات المتحدة لا تتعرض لهجوم مسلح، بالمعنى الذى جاء فى المادة ٥١ من ميثاق الأمم المتحدة، فإن هذه الاعتبارات غير ذات صلة - إذا كنا، على الأقل، نوافق على أن المبادئ الأساسية للقانون الدولى تنطبق علينا، ولا تنطبق على من لايروقون لنا فحسب. ومع ذلك، إذا ما نحينا القانون الدولى جانبًا، فإن لدينا قرونًا من التجارب التى تخبرنا بالضبط ما تجره علينا المبادئ التى يجرى اقتراحها الآن، ويهلل لها العديد من المعلقين. إن ما تجره هو الإنهاء الوشيك للتجربة الإنسانية فى عالم يملك أسلحة الدمار الشامل - ولهذا السبب، قررت أوروبا، فى نهاية الأمر، منذ نصف قرن، أن لعبة القتل المتبادل التى كانوا ينغمسون فيها لعدة قرون يستحسن أن تنتهى، وإلا.

سؤال: فى أعقاب ١١/ ٩ مباشرة، فزع الكثيرون حين رأوا تعبيرات الغضب من الولايات المتحدة تخرج وتبرز من أنحاء مختلفة من العالم، بما فى ذلك الشرق الأوسط، وإن لم تكن قاصرة عليه. ذلك أن صور الناس وهم يحتفلون بتدمير مركز التجارة العالمى تجعل الشعب يطالب بالانتقام. فما رأيك فى ذلك؟

تشومسكى: لقد تسلم زمام الأمور فى إندونيسيا عام ١٩٦٥ جيش تسانده الولايات المتحدة، وأخذ ينظم ذبح مئات الآلاف من الناس، غالبيتهم من الفلاحين الذين لا يملكون أراضى، فى مذبحة قارنتها وكالة المخابرات المركزية بجرائم هتلر وستالين وماو. وحين كتب عن المذبحة بدقة، أحدثت حالة من الحبور الجامح فى الغرب، فى وسائل الإعلام الوطنية، وغيرها. ولم يكن الفلاحون الإندونيسيون قد تسببوا فى أى ضرر لنا بأى وسيلة. وحين خضعت نيكاراجوا أخيرًا لهجوم الولايات المتحدة، أثنت الصحف الرائجة بنجاح الطرق التى تم اتباعها "لتحطيم الاقتصاد وتنفيذ حرب مميتة بالوكالة إلى أن أسقط الأهالى المنهكون بأنفسهم الحكومة غير المرغوب فيها" بتكلفة "ضئيلة" بالنسبة لنا مخلفين الضحايا "وقد دمرت جسورهم، وخربت محطات الطاقة لديهم، وانهارت مزارعهم" مما قدم لمرشح الولايات المتحدة "قضية رابحة" هى إنهاء "فقر شعب نيكاراجوا" [تايم]. لقد "وحدنا الفرح" بهذه النتيجة، كما قالت النيويورك تايمز. من السهل أن أستفيض فى ذلك. قليل من الناس فى أنحاء العالم احتفلوا بالجرائم التى وقعت فى

نيويورك؛ بشكل عارم، بل إن هذه الأعمال البشعة كانت مصدر حزن شديد، حتى فى أماكن داست فيها واشنطون على الناس بأقدامها لمدة طالت كثيراً. ولكن كانت هناك، لا شك، مشاعر غضب من الولايات المتحدة. ولا أعرف، على أى حال، ما هو أكثر غرابة من المثالين اللذين ذكرتهما.

سؤال: إذا ما ابتعدنا عن ردود الأفعال العلنية هذه، ما هى - فى رأيك - الدوافع الحقيقية التى تعمل عملها فى سياسة الولايات المتحدة فى هذه اللحظة؟ وما الغرض من "الحرب ضد الإرهاب" كما يراها بوش؟

تشومسكى: ليست "الحرب ضد الإرهاب" جديدة، ولا هى "حرب ضد الإرهاب" إذ يجب علينا أن نتذكر أن إدارة ريجان وصلت للحكم منذ ٢٠ عامًا، معلنة أن "الإرهاب الدولى" الذى يرعاه الاتحاد السوفييتى فى أنحاء العالم هو أكبر تهديد تواجهه الولايات المتحدة التى تعد الهدف الرئيسى للإرهاب، وكذلك حلفاؤها وأصدقاؤها. لذا يجب أن نكرس أنفسنا لحرب لاستئصال هذا "السرطان" هذا "الطاعون" الذى يدمر الحضارة. وكان أنصار ريجان يتصرفون بناء على هذا الالتزام عن طريق تنظيم حملات من الإرهاب الدولى كانت غير عادية من حيث تصاعدها ودمارها، بل إنها أدت إلى إدانة للولايات المتحدة من المحكمة الدولية. كما كان هؤلاء يقدمون دعمهم للكثيرين غيرهم، مثلاً فى جنوب أفريقيا، حيث قتل من جراء الفظائع التى كانت تساندها الولايات المتحدة مليون ونصف من البشر، وتسبب عن خسائر قدرها ٦٠ بليون دولار أثناء سنوات ريجان وحدها. وبلغت هيستيريا الحرب ضد الإرهاب الدولى ذروتها فى منتصف الثمانينيات من القرن العشرين، فى حين كانت الولايات المتحدة وحلفاؤها فى المقدمة فى نشر السرطان الذى كانوا يطالبون باستئصاله. فإذا شئنا يمكننا أن نعيش فى عالم من الوهم المريح. أو نستطيع أن ننظر إلى التاريخ الحديث، إلى الهياكل المؤسسية التى ظلت دون تغير من حيث الجوهر، وإلى الخطط التى كانت تعلن - ونجيب على الأسئلة بناء على ذلك. ولست أعلم سبباً يجعلنا نفترض أنه كان هناك تغيير مفاجئ فى الدوافع الدائمة القديمة أو أهداف السياسة، باستثناء التعديلات التكتيكية حسب الظروف المتغيرة. كما يجب أن نعرف أن من بين مهام المفكرين الرفيعة أن يعلنوا كل بضع سنين أننا قد "غيرنا نهجنا" وأن الماضى وراءنا، ويمكن نسيانه ونحن نتقدم نحو مستقبل مجيد. وهذا موقف ملائم كل الملاءمة، وإن لم يكن معقولاً أو جديراً

بالإعجاب. وما كتب فى هذا كله يملأ مجلدات. ولا يوجد أى سبب، إلا إذا اخترنا ذلك، يحملنا على أن نبقى بلا وعى بالحقائق التى هى، بالطبع مألوفة بالنسبة للضحايا وإن كان قليل منهم فى وضع يمكنهم من التعرف على مدى الهجوم الإرهابى الدولى الذى يخضعون له، كما أنهم لا يعرفون طبيعته.

سؤال: هل تعتقد أن معظم الأمريكيين سوف يقبلون أن الحل للهجمات الإرهابية ضد المدنيين هنا، يكمن فى أن ترد الولايات المتحدة بهجمات إرهابية ضد المدنيين فى الخارج؟ وأن الحل لمواجهة التعصب هو فى تقييد الحريات المدنية إذا سمحت الظروف بتقييم تفصيلى للاختيارات؟

تشومسكى: لا آمل ذلك، غير أننا لا يجب أن نقلل من قدرة أجهزة الدعاية التى تدار إدارة جيدة؛ بحيث تدفع الناس إلى تصرفات انتحارية إجرامية غير عقلانية. ولنضرب مثلاً بعيداً بقدر كاف بحيث يمكننا النظر إليه بأقل قدر من الانفعال، أعنى الحرب العالمية الأولى. إذ لا يمكن أن يكون الجانبان مشتبكين فى حرب نبيلة من أجل أسمى الغايات. ولكن على الجانبين كان الجنود يتقدمون نحو الهلاك بقدر هائل من الغبطة يعززها هتاف طبقة المفكرين وأولئك الذين ساعدوا على تعبئتهم فى كل ألوان الطيف السياسى، من اليسار إلى اليمين، بما فى ذلك أشد القوى السياسية اليسارية فى العالم، فى ألمانيا. والاستثناءات قليلة حتى أننا يمكننا عمليّا أن نعدها، بل إن المطاف انتهى ببعض من أبرز هذه القوى إلى السجن؛ لأنها تساءلت عن نبل ذلك المشروع، ومنهم روزا لاكسمبيرج، وبرتراند راسل، ويوجين ديبس. وفى خلال أشهر قليلة، تحول بلد تهدوى يدعو للتهدئة بين المتحاربين إلى بلد من المتحمسين الهيستيريين المعادين للألمان، مستعدين للانتقام من أولئك الذين ارتكبوا جرائم وحشية فى حقهم. كثيراً من هذه الجرائم قد اخترعتها وزارة الإعلام البريطانية. كل هذا كان بمساعدة وكالات الدعاية التابعة لويلسون والدعم الحماسى من جانب المفكرين الليبراليين. غير أن هذا ليس شيئًا حتميّا بأى حال. ولا يجب أن نقلل من شأن الآثار التحضرية للنضال الشعبى فى السنوات الأخيرة. إذ أننا لسنا فى حاجة إلى السير نحو الكارثة لمجرد أن هذه هى خطوط أو أوامر السير المعطاة لنا.

* * *